ماهية الهرمنوطيقا

بقلم : أحمد واعظي

تعريب : حيدر نجف

ملخص البحث:

يشكل هذا البحث مدخلاً منهجياً لفهم الهرمنوطيقا. حيث قام الباحث بملاحقة عامة هذا العلم منذ انبثاقه في الفكر الإنساني، وصولاً إلى يومنا هذا؛ لذلك بدأ بحثه بالحديث عن البعد اللغوي للهرمنوطيقا؛ فتحدث عن جذر هذا المصطلح في الحضارات القديمة لاسيما اليونانية، ثم انتقل إلى تعريف هذا العلم، وكيفية تطوره منذ القرن السادس عشر "حتى فريدريك أرنست شلايرماخر"، الذي كان ينظر إلى الهرمنوطيقا كفنٍ يشتمل على جملة قواعد تفسيرية محددّة.

بعد أن عرض الكاتب لكيفية تطور هذا العلم وصولاً إلى تقعيده، إنتقل للحديث عن المشاكل التي تعترض سبيل

الباحث؛ فتحدث عن مشكلتين أساسيتين، ثم عرض لثلاث مقولات متمايزة هي:

الهرمنوطيقا الخاصة والعامة والفلسفية، فميز بينها، ودعا إلى معالجة كل نوع منها على حده؛ لذلك قام باختيار الهرمنوطيقا العامة، فتحدث عنها باسهاب، وشرح موقف كل من "شلاير ماخر" و"دلتاي" وصولاً إلى "مارتن هيدغر"، الذي قدم إضافات هامة في هذا المجال.

هذا وتابع الباحث عمله بالحديث عن أهداف الهرمنوطيقا عند "هيدغر" و "غادامر" و "بول ريكور". وتوصل الكاتب في نهاية معالجته إلى القول: إن الهرموطيقا تفتقر لأهداق مشتركة ثابتة، يتفق عليها الجميع، فلكل باحث أهدافه الخاصة.

عند الإنتهاء من فصله السابق، انتقل الباحث للحديث عن مكانة الهرمنوطيقا في الدراسات الحديثة، وتأثيرها على كافة مجالات العلوم، في الدراسات الأدبية إلى العلوم الاجتماعية والأخلاق، ليعود بعد ذلك إلى الهرمنوطيقا المجهولة كما ظهرت مع القديس" أوغسطين" و"نيتشة" وغيرهما من الفلاسفة. ليختم بحثه بموضوع "الاسلاميون والهرمنوطيقا"، إضافة إلى خلاصة عرض فيها لتحديات هذا العلم في ميدان فهم النص الديني.

تمهيد:

شغلت الهرمنوطيقا في القرون الأخيرة مكانة خاصة في الفكر الإنساني كعلم أو خبرة مستقلة. ويعكف اليوم العديد من المفكرين البارزين على البحث والتنقيب في هذا المضمار، مضافاً إلى أن الهرمنوطيقا استطاعت خلال القرن العشرين فرض معطياتها على جميع الأصعدة المعرفية،كالفلسفة واللاهوت والنقد الأدبي والعلوم الاجتماعية وفلسفة العلم،والتأسيس لأسئلة وبحوث جديدة في هذه الحقول.

تتوخى هذه الدراسة تقديم صورة إجمالية لماهية الهرمنوطيقا وتخومها،عبر التطرق لجوانب مختلفة:كالمسار التاريخي للهرمنوطيقا، وتعريفها، وغايتها، وموقعها، قياساً إلى باقي ضروب المعرفة، ثم التحديات والإشكاليات التي اصطنعتها للأفكار الدينية.

1 - الهرمنوطيقا لغوياً:

الهرمنوطيقا من المفردات التي استُخدمت بقلة وندرة، وعلى نحو متفرق في اليونان القديمة. فقد إختارها "**أرسطو**" عنواناً لرسالته حول منطق القضايا من كتابه"**الأرغانون**"، حيث سمى إحدى رسائله: (Peri-hermencias) أو: "في باب التفسير". وقد تناول في عمله هذا ، البنية القواعدية (Grammatical) للكلام البشري. فالمحمول و الموضوع يتحدان في كلام البشر،والذي يُسرد في شكل قضايا، فيحمل أحدها على الآخر ليعبّرا عن خصوصيات الأشياء.

ورغم هذا الاستخدام والتداول، فإن الهرمنوطيقا لم تتشكل كفرع علمي حتى عصر النهضة والإصلاح الديني، أي القرن السادس عشر الميلادي[1].

فحتى القرن السابع عشر الميلادي لا يمكن العثور على دراسات منتظمة ومترابطة تشكل فرعاً علمياً خاصاً اسمه الهرمنوطيقا. وغالباً ما يُعتبر "**دون هاور**" (Donn Hauer) أول من استخدم هذه المفردة للدلالة على فرع علمي، فقد اختارها عام 1654 م لعنوان كتابه[2].

ذهب "**دون هاور**" إلى أن منهج التفسير هو القناة التي تجتازها كل العلوم. فلا مندوحة لأية شعبة من شعب المعرفة من التوافر على علم التفسير. ومرد هذه الفكرة إلى اعتقاد كان سائداً آنذاك، مفاده أن جميع الفروع العلمية، كالحقوق والإلهيات و ... الخ، لا بد من أن تنمو من التفسير وتتغذى عليه، لا سيما تفسير النص.فلا بد، إذاً، من وجود علم يتولى تنقيح هذا الأسلوب وتعريفه[3].

وعلى هذا ،فالهرمنوطيقا كفرع علمي مستقل،يعتبر ظاهرة حديثة تختص بعصر الحداثة.

ومع أن الكلمة اليونانية (Hermeneutike)كانت مستخدمة منذ زمن "**أفلاطون**"، بيد أن معادلها اللاتيني (Hermenetica)لم ينتشر إلا في القرن السابع عشر الميلادي، كمصطلح خاص يشير إلى فرع محدد من المعرفة البشرية. لذلك تنطلق دراسة تاريخ الهرمنوطيقا من القرن السابع عشر، ويسمى العهد السابق، ما قبل تاريخ (Pre history) الهرمنوطيقا.

إن الهدف الرئيس من هذا الفصل،هو مناقشة معنى الهرمنوطيقا كاصطلاح؛ ولكن من المناسب أن نشير، ولو باختصار، إلى الجذر اللغوي للكلمة.

عند تحري الجذور اللغوية للهرمنوطيقا، وملاحظة اشتقاقها اللفظي (Etymology)، عادة ما يجري الربط بوضوح بينها وبين مفردة Hermes (إله نقل الرسائل عند اليونانيين).

إنّ كلمة هرمنوطيقا مشتقة من الفعل اليوناني(Hermeneuir) ، بمعنى عملية التفسير (التفسير كفعل)، ومعناه الاسمي(Hermencia) أي التفسير. وتتضمن الأشكال المختلفة لهذه الكلمة إفهام شيء، أو ظرف يلفه الغموض .

ينسب اليونانيون اكتشاف اللغة والخط إلى "هرمس"، وهما أداتا نقل المعاني للآخرين. وقد كانت عملية التفهيم هي مهمة "هرمس" الأساسية، ولعنصر اللغة دور أساس في هذه العملية بالطبع[4].

كان "هرمس" جسراً يفسر و يشرح رسالات الآلهة، وذلك بتحوير ماهيتها ومضامينها (التي كانت فوق مستوى الفهم البشري)، من أجل تفهيمها للناس وجعلها ممكنة الإدراك من قبلهم. وقد عد بعض الباحثين البناء الثلاثي لعملية التفسير، شاهد صدق على هذا الاشتقاق، وعلى العلاقة بين كلمة هرمنوطيقا وهرمس الإله، ناقل الرسائل لدى اليونانيين. فكل شرح أو تفسير لا بد له من ثلاثة أركان أو أضلاع:

أ - العلامة أو الرسالة أو النص الذي يلزمه الفهم والتفسير.

ب- واسطة الفهم، أو المفسر (هرمس).

ج - إيصال فحوى النص ومعانيه إلى المخاطبين.

هذه البنية العامة تحتوي أهم المواضيع في الهرمنوطيقا، مواضيع من قبيل ماهية النص، والمراد من فهم النص، آلية تأثير القبليات والمبتنيات المسبقة في فهم النص [5].

ومع أن الطبيعة الوسائطية للهرمنوطيقا حدت ببعضهم إلى الربط بينها وبين "هرمس" في مقام التحليل اللغوي (ويبدو أن هذا الرأي أرصن وأقوم من الآراء الأخرى)، إلا أن فريقاً من الباحثين شكك في هذا التحليل. وأياً كان، لا يزال باب الإدلاء بالآراء في هذا الشأن مشرعاً [6].

حينما تذكر الهرمنوطيقا كفرع معرفي، ومجموعة من المساعي النظرية والفكرية المبذولة، أي حينما نلقي نظرة على المجال العام للهرمنوطيقا، نضع الحرف (s) في نهاية الكلمة (Hermeneutics) ،رغم أن بعضهم ، ومنهم "جيمس رابينسون" ،لم يرَ ضرورةً لإضافة الحرف (s) [7].

وبصرف النظر عن استعمال هذه المفردة كفرع علمي تنتهي بالحرف (s)، فإن الهرمنوطيقا بدون (s) تستعمل بمعناها الاسمي و الوصفي.

في الاستعمال الاسمي للمفردة، قد يرد الحرف (s) في خاتمتها، وقد لا يرد. والهرمنوطيقا في هذا الاستعمال، عنوان للفروع والميول والمدارس المختلفة الموجودة في مضمار التفكير الهرمنوطيقي. وللتمثيل يمكن الإشارة إلى بعض التراكيب، نظير هرمنوطيقا الكتاب المقدس، والهرمنوطيقا الأدبية، وهرمنوطيقا المناهج، وهرمنوطيقا هايدغر ... الخ.

أمـــا اســـتعمالها الوصـــفي فيـــرد بالشـــكلين (Hermeneutic) و(Hermeneutical).

ومـن أمثلـة تلـك التراكيـب: النظريـة الهرمنوطيقيـة (Hermeneutic theory)، واللاهـوت الهرمنـوطيقي (Hermeneutic theology)، الحادثـة الهرمنوطيقيـة [8] (Hermeneutical event)، والظـرف الهرمنـوطيقي [9] (Hermeneutic situation).

ورغم كل هذا، فالتدقيق و الغور في الأعماق اللغوية لكلمة "**هرمنوطيقا**" لا يساعد على تشخيص ماهية الهرمنوطيقا المعاصرة ومـا تقتـرن بهـا مـن بحـوث. فاتساع حدود الهرمنوطيقا وتحولاتها وانقلاباتهـا الداخليـة، لـم تكـن ذات صـلة منطقية بالمعنى اللغوي للكلمة، ولا بجذورها وأصولها اللسانية، حتـى يتسـنى لنـا ،بفضل التحليل اللغوي للكلمة، مد الجسور إلى استيعابٍ أفضل لما يدرس اليـوم باسم الهرمنوطيقا؛ لذلك لا تبدو أن ثمة فائدة كبيرة في معرفـة أصـولها اللغويـة، ودراسة استعمالاتها التاريخية في أعمال الفلاسفة اليونانيين: كـأفلاطون وأرسـطو. ولذا نعزف عن التفصيل في هذا المجال.

2- تعريف الهرمنوطيقا :

على امتداد التاريخ القصير للهرمنوطيقا، ظهرت العديد من التعاريف لهـذا المنحى المعرفي، عبّر كل واحـد منهـا عـن رؤيـة خاصـة لأهـداف الهرمنوطيقـا ووظائفها. وقبل الحكم على إمكانيات تقديم تعريف جـامع شـامل لكـل نـواحي

الهرمنوطيقا، بحيث يستوعب المساعي الهرمنوطيقية الماضية والحالية، من المناسب الإشارة إلى طائفة من التعاريف الواردة في هذا الباب؛ لأن الفهم السليم لكل واحد من هذه التعاريف، يستلزم إيضاحاً موجزاً للإرهاصات التي أدت إليه، وهي إرهاصات تعبر عن تصورات واضعي التعريف لأهداف الهرمنوطيقا واستخداماتها.

1- أكد "**جون مارتين كلادنيوس**" (1710-1759)، أن العلوم الإنسانية ترتكز إلى فنّ التفسير، وقرر أن الهرمنوطيقا هو الاسم الآخر لهذا الفن.

فقد يلف الغموض فهم بعض العبارات الشفهية والتحريرية، بحيث يحول دون فهمها الكامل الدقيق. والهرمنوطيقا فن الوصول إلى الفهم التام للعبارات الشفهية والتحريرية. وهو فن يشتمل على جملة قواعد، فهو أشبه بالمنطق، ويعين المفسر على إجلاء غوامض النص [10].

2- يعرف "**فريدريك أغوست وولف**" في محاضرات عام 1785-1807 حول "**موسوعة البحوث الكلاسيكية**"، الهرمنوطيقا بأنها "**المعرفة بقواعد تعين على إدراك معاني العلامات**". الهدف من هذا العلم استيعاب الأفكار الشفهية والتحريرية للقائل أو الكاتب كما أراد هو بالضبط. إن هذا الفهم للتفسير، ولوظيفة الهرمنوطيقا، يحتم معرفة لغة النص وظروفه التاريخية بشكل واف، لأجل حصول الفهم واستيعاب المعنى. والمراد بالمعرفة التاريخية، الإحاطة بحياة المؤلف و الظروف

التاريخية والجغرافية التي صاحبها، فالمفسر الحاذق هو الذي يعرف كل ما يعرفه المؤلف[11].

3- ينظر "**فريدريك أرنست دانيل شلايرماخر**" (1768-1834) إلى الهرمنوطيقا بوصفها "**فن الفهم و الاستيعاب**". وقد ركز على قضية سوء الفهم، وأكد أن تفسير النصوص عرضة لسوء الفهم دائماً. لذلك يجب استخدام الهرمنوطيقا كمجموعة قواعد ممنهجة للاحتراز من الوقوع في هذا الخطر. ومن دون هذا الفن لا سبيل إلى حصول الفهم[12].

الفارق بين هذا التعريف والتعريف الأول، هو أن "**كلادينوس**" لا يرى الحاجة للهرمنوطيقا إلا في مواطن الالتباس والغموض، بينما يقرر "**شلايرماخر**" أن المفسر بحاجة دائمة إلى الهرمنوطيقا لفهم جميع النصوص. فالهرمنوطيقا عنده، ليست لتبديد الغموض، إنما هي علم يصد عن سوء الفهم الممكن الوقوع على طول الخط وفي أي لحظة.

بعبارة ثانية، الأصل عند "**كلادنيوس**" هو صحة الفهم والتفسير. ففهم النص يشق طريقه بنحو طبيعي عادي من دون عراقيل، إلا إذا داهمه الغموض أو المعضل، والهرمنوطيقا علم مساعد (Auxiliary science) يعين على رفع الغموض، وإجلاء المبهم. بينما الأصل في رأي "**شلايرماخر**" هو سوء الفهم، إلا إذا تحاشاه المفسر بواسطة قواعد الهرمنوطيقا.

إذاً على الرغم من أن كليهما كانا ينظران للهرمنوطيقا كفن يشتمل على جملة قواعد، إلا أنهما يختلفان في محتوى هذه القواعد و الغاية منها.

4- ذهب "**وليام دلتاي**" (1833-1911) إلى أن الهرمنوطيقا علم يتولى تقديم مناهج للعلوم الإنسانية. فالغاية القصوى للجهد الهرمنوطيقي عنده هو الرفع من قيمة ومكانة العلوم الإنسانية، ومساواتها بالعلوم التجريبية.

فهو يرى أن جوهر الجزم واليقين في العلوم التجريبية كامن في وضوح و جلاء مناهجها، ومن أجل أن تكون العلوم الإنسانية علماً (Science)، لا محيص من تنقيح مناهجها، واتضاح أصولها وأركانها المشتركة الراسخة، التي تعدّ مرتكزاً لتصديقات العلوم الإنسانية، وقضاياها كافة [13].

5- يعرف باحث ألماني معاصر، اسمه "**بابنر**" (Bubner)، في مقال "الهرمنوطيقا المتعالية" -الذي دُوّن سنة 1975- الهرمنوطيقا بأنها "**مشروع فهم**".

ويتناسق هذا التعريف تماماً مع الهرمنوطيقا الفلسفية لدى "**مارتن هايدغر**" و"**هانس غادامر**"، إذ إن المقصد من الهرمنوطيقا الفلسفية هو وصف ماهية الفهم. إذ هي خلافاً للهرمنوطيقات السابقة، لا تنحصر بفكرة فهم النص، ولا تقيّد نفسها في نطاق فهم العلوم الإنسانية، إنما ترمي إلى مطلق الفهم، وتروم تحليل عملية الفهم كحادثة، والإفصاح عن شروط حصولها.

هذه التعاريف الخمسة ما هي إلا جانب من التعاريف الممكن استعراضها للهرمنوطيقا في هذا المقام، بيد أنها تكفي للدلالة على سعة السجالات الهرمنوطيقية وتنوع التصورات بشأنها. إنها تعاريف تشير جليّاً الى اتساع رقعة الدراسات الهرمنوطيقية، وتنوعها بموازاة التطورات التاريخية. حتى أن تعريف الهرمنوطيقا، كإشارات لتفسير النصوص الدينية والحقوقية، ترك مكانا لتعريفها كتأمل فلسفي لماهية الفهم وشروط حصوله.

هذا التمدد الكبير يشير بوضوح إلى أن أياً من التعاريف أعلاه لا يستطيع الإحاطة بكل الجهود النظرية المسماة هرمنوطيقا. ولا ينحصر هذا العجز بالتعاريف الملمّح إليها، إنما تتعذر أساساً صياغة تعريف جامع لكل الميول والاتجاهات الهرمنوطيقية. فالمناحي التي ظهرت وتظهر على صعيد رسالة الهرمنوطيقا وأهدافها واستعمالاتها، تتباين، أحياناً، إلى درجة استحالة الجمع بينها. وكمثال، لا يفهم "**دلتاي**" الهرمنوطيقا كعلمٍ غايته فهم النصوص، إنما يخاله من سنخ "**الميتدولوجيا**" وعلم المعرفة، ويريده لخدمة العلوم الإنسانية بشكل عام.

من ناحية أخرى، تقرر الهرمنوطيقا الفلسفية التي انطلقت مع "**هايدغر**" في إطار رؤية مختلفة تماماً.

إن الهرمنوطيقا ليس من شأنها تقديم منهج، إنما رسالتها التأمل الفلسفي في أسس أنطولوجيا الفهم، واكتشاف شروط حصول الفهم وظروفه. فهي ترتقي بالهرمنوطيقا من مستوى المنهجية والأبستيمولوجيا، إلى درجة الفلسفة والأنطولوجيا (Ontology). فكيف يتسنى لتعريف واحد، في مثل هذه الغمار

الصاخبة من الآراء و المذاهب حول أهداف الهرمنوطيقا ورسالتها، أن يعبر عن كل هذه المعطيات الفكرية، والجهود النظرية، و يحيط بها إحاطة تامة ؟!

و إذا صرفنا النظر عن التعريف الدقيق الجامع،يبدو من الممكن تقديم تعاريف تسامحية لتنوير الأذهان، وتحديد فئة المباحث التي تعنى بها الهرمنوطيقا من قريب أو بعيد.فـ "**بول ريكور**" ،على سبيل المثال، يعرف الهرمنوطيقا في مطلع دراسته "**رسالة الهرمنوطيقا**"، بأنها "**نظرية الفهم كممارسة في مجريات علاقاتها بتفسير النصوص**" (15).

وتوخياً لهذا الهدف أيضاً، يعرف "**ريتشارد بالمر**" الهرمنوطيقا فيقول: "**هي التي تفي اليوم بفهم تراث التأمل الفلسفي الألماني، والفرنسي أخيراً، حول ماهية الفهم** (Understanding) **التي تطورت على يد "شلايرماخر" و "دلتاي" و "هيدغر"، ويتبناها في الوقت الحاضر "غادامر"** (16).

3- تخوم الهرمنوطيقا:

إجابة عن السؤال "**فيمَ تبحث الهرمنوطيقا؟**" يختار بعضهم هذا الجواب البسيط: "**الهرمنوطيقا أسلوب تفكير وتأمل فلسفي يرمي إلى إيضاح مفهوم الفهم** (Verstehen understanding)، **ويجيب عن السؤال: ما الذي يصنع معنى الشيء ذي المعنى؟.. وربما كان هذا الشيء شعراً أو نصاً قانونياً أو فعلاً إنسانياً، أو لغة، أو ثقافة أجنبية، أو فرداً** " (17).

يواجه الفهم، بصفته موضوعاً للهرمنوطيقا وحداً فاصلاً لها مشكلتين أساسيتين: الأولى هي أن الاستفهام عن الفهم و الإدراك مطروح في العديد من المجالات، وله كثير من التطبيقات في الفروع النظرية، كالفلسفة التحليلية، والفلسفة الكلاسيكية، ونظرية المعرفة (Theory of knowledge). وكلها حقول تتعامل مع مسألة الفهم من زاويتها الخاصة، وبنحو مختلف. إذن ينبغي التحديد الدقيق للزاوية التي تنظر منها الهرمنوطيقا لمسألة الفهم، والتي تميّزها عن غيرها من شِعَب المعرفة.

المشكلة الثانية: أنه رغم اندكاك المناحي الهرمنوطيقية المختلفة بمسألة الفهم والإدراك، بيد أن هذا القدر من الاشتراك النظري لا يرسم بحال من الأحوال تخوم الهرمنوطيقا ومدّياتها، فكل واحد من هذه المناحي والاتجاهات تحرّى غاياته و تابعها. ومن الطبيعي أن يفضي تفاوت الأهداف هذا إلى تباين مجالات الأبحاث وماهيتها. فمثلاً: من ينظر إلى مسألة الفهم نظرة وصفية ظاهراتية، لا ينشد في الهرمنوطيقا منهجاً لتمييز الفهم الصحيح من السقيم. وطبعاً، فإن شخصاً مثل "**دلتاي**"، يصب كل اهتمامه على تكوين علوم إنسانية على درجة عالية من القطع و اليقين، ستكون له رؤيته الميتدولوجية (المنهجية) للهرمنوطيقا، ويتوقع أن تفضي تأملاته الهرمنوطيقية إلى منهج عام لمطلق العلوم الإنسانية. وجلي أن كل واحد من هذين المنهجين يخوض في مسألة الفهم على نحو مختلف. أحدهما ينظر لمطلق الفهم من نافذة ظاهراتية، ويُعنى بوصف ماهية الفهم و الشروط الأنطولوجية لحصوله، وهل هو تاريخي أم لا؟. ويركز الثاني على فهم العالم الداخلي للأفراد

والأذهان الأخرى المتبدية في شكل أعمال وإبداعات فنية وأدبية، وسواها من المنجزات الإنسانية، ويتوخى، ربما، أسلوباً وثيقاً قطعياً لفهم الأذهان الأخرى، والحياة الداخلية للأفراد.

هاتان الرؤيتان لمسألة الفهم - بغض النظر عن التفاوت في حدود الفهم، حيث يرمي طرف إلى مطلق الفهم، ويقصد الثاني فهم الحياة الداخلية للأفراد- يفرزان مملكتين من البحوث والدراسات مستقلتين تماماً، وغير مشتركتين في الموضوع، إذ لا يمكن الزعم بأن الاتجاهين يبحثان في قضايا مشتركة.

طُرحت الهرمنوطيقا الفلسفية من قبل "**هايدغر**" في القرن العشرين، ونمت وازدهرت بجهود فيلسوف ألماني آخر هو "**هانس غادامر**". إن تأثير هذين المفكرين، ونفوذ آرائهما في شتى الفروع المعرفية:كالنقد الأدبي، وعلم الدلالات، واللاهوت والعلوم الاجتماعية، يثير في الذهن بأن المساحة، أو المملكة الوحيدة للتفكير و التأمل الهرمنوطيقي، هو ما نجده في الهرمنوطيقا الفلسفية، أي التأمل الفلسفي والظاهراتي لماهية الفهم، والشروط الأنطولوجية لحصوله. وأبعد من هذا التصور عن الصواب، هو الانحياز إلى القول: إن المساحة الممكنة الوحيدة للتأمل الهرمنوطيقي، هي ما رسمه الفلاسفة الألمان للهرمنوطيقا، وما شاع من ثقافة هرمنوطيقية ألمانية في القرن العشرين.

الواقع أن الهرمنوطيقا الفلسفية فتحت أفقاً في التأمل الهرمنوطيقي تحتاجه دائماً، ولا مناص لنا من الخوض فيه. فأي نظرية تفسيرية تبنيناها حول فهم النص، ومهما كان المنحى الذي نتخذه على صعيد النقد الأدبي و علم الاجتماع والعلوم

الإنسانية الأخرى، فلسنا في غنى عن البحث في ماهية الفهم عموماً، وتحليل بنيته الوجودية. وكنموذج نشير إلى فهم النص وتفسيره. من الممكن في أي وقت، أن تظهر نظرية تفسيرية جديدة في فهم النص، وهذا التنظير المتجدد، رغم أنه لا ينتمي لحيّز الهرمنوطيقا الفلسفية، إلا أنه مبحث هرمنوطيقي.

إن حصر الهرمنوطيقا ومدّياتها في الهرمنوطيقا الفلسفية العامة (التي تشمل الاتجاهين الألماني و الفرنسي)، أو في الهرمنوطيقا الفلسفية الألمانية على وجه الخصوص (هايدغر و غادامر)، هو حصر لا وجه له على الإطلاق.

يشير "**ريتشارد بالمر**" في معالجته لتخوم الهرمنوطيقا، و أنها غير مقتصرة على الهرمنوطيقا الفلسفية، إلى أننا نستطيع في مضمار الهرمنوطيقا تقرير ثلاث مقولات متمايزة تماماً:

1 - الهرمنوطيقا الخاصة (Regional) ذات الصلة بالصيغ الأولى للهرمنوطيقا كفرع علمي. في هذا الضرب من الهرمنوطيقا، وبهدف تنقيح عملية تفسير النصوص في كل واحد من ميادين المعرفة، كالحقوق و الآداب والكتب المقدسة والفلسفة، تتوافر جملة قواعد وأصول ممنهجة، بنحو يستقل معه كل ميدان معرفي بسلسلة من القواعد والأصول التفسيرية الخاصة به. وبذا تكون هرمنوطيقا كل علم خاصة بذلك العلم. فمثلاً: لا يصح الانتهال من الهرمنوطيقا المستخدمة لتفسير النصوص المقدسة، لشرح النصوص الأدبية الكلاسيكية. وعموماً تستخدم كل هرمنوطيقا في مجالها العلمي الخاص [18].

2 - الهرمنوطيقا العامة (General)، و هي نمط من المناهج والمناهجية، تُعنى بتقديم منهج للفهم والتفسير، وتنقيح القواعد والأصول، مع فارق أنها لا تختص بفروع معينة من العلوم ، بل تغطي عدة فروع من العلوم التفسيرية.

انطلقت هذه النزعة الجديدة في الهرمنوطيقا من القرن الثامن عشر، وكان المتكلم الألماني "**فريدريك شلايرماخر**" أول من قدم عرضاً متناسقا لها، ويتبناها اليوم مفكرون من قبيل "**أميليوبونتي**" و "**أريك هرش**".

تقوم هذه النزعة الهرمنوطيقية على فكرة أن ثمة قواعد و أصولاً عامة تتحكم في عملية فهم النص، بغض النظر عن ماهية ذلك النص. لذا يتعين على المشتغل بالهرمنوطيقا العمل على تنقيح هذه القواعد العامة و تنظيمها.

ويصح تصنيف مشروع "**ويليام دلتاي**" ضمن هذه النزعة. فهو رغم عدم تقيده بتفسير النصوص، وتوسيعه دائرة اهتمامه لتشمل مطلق العلوم الإنسانية، إلا أن خلفيته المسبقة، أو قبلياته، تتوافق تماماً مع قبليات أتباع الهرمنوطيقا العامة.

ذهب "**دلتاي**" إلى أن سلوكيات الأفراد و أقوالهم وكتاباتهم تنم كلها عن حياتهم الذهنية الداخلية، وعلى كل العلوم الإنسانية، بما تنطوي عليه من تنوع أن تنفذ إلى الحياة الداخلية للأفراد الذين تصدر

عنهم هذه الأفعال و الآثار. ويتبع هذا النفوذ إلى الحياة الداخلية أصولاً وقواعد و منهجاً عاماً مشتركاً، ووظيفة الهرمنوطيقا تنظيم هذه الأصول والقواعد و تنقيحها؛ أي التبيين المتقن والصحيح للمنهجية السائدة في العلوم الإنسانية.

3 - الهرمنوطيقا الفلسفية، وهي الاتجاه الثالث في الهرمنوطيقا، حيث تقرر التأمل الفلسفي لظاهرة الفهم موضوعاً لها، بعيداً عن تقديم منهج أو بيان أصول وقواعد تتحكم في عملية الفهم والتفسير، سواء كان هذا المنهج مراداً لفهم النص أو لمطلق العلوم الإنسانية. وإذا أمعنّا النظر، ألفينا أن هذا السنخ من الهرمنوطيقا لا ينأى عن تقديم منهج وحسب، بل ينقد المنهج والمناهجية، ولا يجاري فكرة "**يمكن بلوغ الحقيقة بتنقيح المنهج**" [20].

نظراً لهذه الاتجاهات الثلاثة المتمايزة في دائرة الهرمنوطيقا، يظهر أن تقييد الهرمنوطيقا داخل حدود أحد هذه الاتجاهات، عملية غير منطقية ولا مبرر لها. فالواقع أن إنجازات ذات بال حصلت تحت مظلة كل واحد من هذه الأنماط الهرمنوطيقية المتفاوتة، وباسم الهرمنوطيقا. ويجب عدم حصر الهرمنوطيقا في اتجاه محدد: كالهرمنوطيقا الفلسفية مثلاً، بإقصاء الجهود المبذولة في الاتجاهات الأخرى عن حيز الهرمنوطيقا، ذلك أن اجتراح أفكار خاصة حول فهم الشعر أو فهم النصوص الدينية وتفسيرها، أو تقديم نظرية تفسيرية جديدة في ميدان فهم النصوص بصفة عامة، هي جهود لها من الانتماء إلى الهرمنوطيقا بمقدار ما للتأمل

الفلسفي الشامل في ماهية الفهم والتفسير؛ ولذلك فإن تصنيف جغرافيا الهرمنوطيقا إلى ثلاث مساحات متفاوتة، يهدم أوهام حصر الهرمنوطيقا بنمط واحد دون غيره، ويتيح الفرصة لتطور وازدهار الهرمنوطيقا على شتى الصعد [20].

4- الهرمنوطيقا العامة:

أشرنا ضمن مناقشتنا لتخوم الهرمنوطيقا، إلى أن بعض المناحي الهرمنوطيقية تدّعي لنفسها العمومية والشمولية، فتقف في الجهة المعاكسة للهرمنوطيقا الخاصة. وبلحاظ أن الهرمنوطيقا الفلسفية ترى نفسها الهرمنوطيقا العامة الوحيدة، وأن باقي اتجاهات الهرمنوطيقا تتسم بالخصوصية والانكماش، من المناسب تقديم مزيد من الإيضاحات بشأن الهرمنوطيقا.

السؤال هو: هل الهرمنوطيقا علم شامل عام، أم أنه محدود بفرع و فروع خاصة من المعرفة البشرية؟

أسلفنا القول: إن الهرمنوطيقا منذ ظهورها في القرن السابع عشر، كانت تعني فن التفسير أو علم التفسير. واستمرت حتى القرن التاسع عشر كنظرية يراد لها تنقيح التفسير أو علم التفسير. في غضون هذه الفترة التاريخية، حصرت الهرمنوطيقا نفسها في حيِّز تقديم إرشادات منهجية لعلوم التفسير، بغية تطويق التفاسير المنغلقة المزاجية قدر الإمكان. وظل شأن الهرمنوطيقا، منذ انطلاقتها حتى فترة طويلة من عمرها شأن العلم المساعد للفروع العلمية المختصة بتفسير النصوص و الدلالات.

و قد أُرسيت قواعد الهرمنوطيقا القدسية (Hermeneutica sacra) في هذه الفترة. كما ظهرت الهرمنوطيقا الفلسفية باسم (Hermeneutica protana)، والهرمنوطيقا الحقوقية باسم (Hermeneutica justisyic)، على نحو منتظم محكم [21]. و قد كان لاستعمال كل واحد من هذه الأعمال والإنجازات دور في فهمٍ أعمق لنصوص هذه العلوم، وإزاحة لوابسها وإبهاماتها.

ركّز كتّاب النصوص الهرمنوطيقية الأوائل على وضع قواعد و أصول تفسيرية رصينة لفروع علمية خاصة، كاللاهوت والحقوق والفلسفة وعلم فقه اللغة (Philology)، وكانت لهم نصوصهم الهرمنوطيقية الخاصة. ومع أن قسماً مما تضمنته هذه الأعمال من أصول ومفاهيم ذو قابلية للتطبيقات العامة، إلا أن أصحابها لم يكونوا بصدد نحت هرمنوطيقا عامّة لكل العلوم التفسيرية، وإنما أعدوا الهرمنوطيقا القدسية للنصوص المقدسة، والهرمنوطيقا الفلسفية للنصوص الفلسفية. وعادة ما يميل مؤرخو الهرمنوطيقا إلى اعتبار "**شلايرماخر**" أول من نشط باتجاه تعميم الهرمنوطيقا. وينحازون إلى رأيه القائل: "**في الوقت الحاضر لا توجد إلا هرمنوطيقات موضعية خاصة تتسم بالتنوع وعدم الارتباط، ولم تظهر لحد الآن كنظرية عامة للفهم**". لكن الواقع هو أن "**دون هاور**" حاول في القرن السابع عشر صياغة قواعد وتعاليم عامة للتفسير [22].

وجّه "**شلايرماخر**" جهوده نحو عرض قواعد وأسس عامة لتفسير النصوص، يتحرر المفسر بموجبها من سوء الفهم، ليبلغ فهماً صحيحاً ذا قيمة عالية. وكانت هرمنوطيقا "**دلتاي**" أيضا، هرمنوطيقا عامة بنحو من الأنحاء. فقد

اهتم بنحت منهج عام لكل العلوم الإنسانية، ترتقي بها إلى مستوى العلوم الطبيعية و التجريبية من حيث قطعيتها ودرجة يقينها.

يُلاحظ أن الشمولية التي تحققت للهرمنوطيقا حتى نهاية القرن التاسع عشر، هي شمولية نسبية لا تتسع لكل فروع المعرفة البشرية. فالطابع العام المطروح في منجزات "**كلادينوس**" و"**شلايرماخر**" و أضرابهما يقتصر على تفسير النص؛ لذلك كانت القواعد والأصول التفسيرية التي اصطنعوها، خاصة بالمعارف الإنسانية ذات الصلة بتفسير النص. كما كانت العمومية المنهجية التي نادى بها "**دلتاي**" مقتصرة على العلوم الإنسانية.

ورغم أن القرن العشرين شهد مساعي للملمة الهرمنوطيقا في فروع مختلفة، كالآداب واللاهوت والعلوم الاجتماعية، غير أن الهرمنوطيقا الفلسفية التي ابتدعها "**هايدغر**" ومن بعده "**غادامر**"، هي التي زعمت لنفسها العمومية والشمول، وأكد أقطابها أن الشمول الذي تقترن به الهرمنوطيقا الفلسفية في القرن العشرين يستوعب جميع المعارف البشرية، ويختلف بذلك عن أنماط الشمول التي سبقته.

وسنتطرق بشيء من التفصيل للهرمنوطيقا الفلسفية لدى "**هايدغر**" و"**غادامر**" في موضع آخر؛ ولكن لأجل فهم المقصود من الشمول الذي تزعمه الهرمنوطيقا الفلسفية، من الضروري الالماح إلى أن الهرمنوطيقا الفلسفية عند "**هايدغر**" لا تُعنى بتفسير النص خاصةً، ولا تقتصر على منهجية العلوم الإنسانية، إنما هي ذات وظيفة وجودية تنضد كشف النقاب عن الشروط والظروف

التأسيسية لعملية الفهم في كل أشكالها وأصنافها. إذاً، فموضوع الهرمنوطيقا الفلسفية وجغرافيتها تتسع لمطلق الفهم بجميع أشكاله، لا فهم المناهج على وجه الخصوص [23].

ويُستشف أن ما حدا بأنصار الهرمنوطيقا الفلسفية في زماننا إلى تسميتها "**الفلسفة الأولى**" (Prima philosophia)، وإضفاء طابع الشمولية المطبقة عليها، هو المساهمة الدائمة والمطلقة لظاهرة التفسير في كل أنماط الفهم البشري. وكان "**نيتشه**" قد سبق "**هايدغر**" إلى القول إن كل تجاربنا وفهومنا ذات طابع تفسيري، وأكد أن "**لا وجود للواقعيات (Facts)، وكل ما هنالك إنما هو تفاسير**".

إذاً، فالأفق التفسيري لا يشمل العلوم التفسيرية الصرفة، كتفسير الكتب المقدسة وعلم اللغة الكلاسيكي والحقوق، وإنما يستوعب جميع العلوم والتوجهات النظرية والفكرية للفرد.

إن الطابع التفسيري المطلق لمعارفنا وفهمنا، يعد مشكلة فلسفية عامة، وتكون الهرمنوطيقا الفلسفية، بما هي مختصة بالفهم على إطلاقه (دون الفهم الخاص)، ذات صبغة عامة [24].

إن دعوى عمومية الهرمنوطيقا الفلسفية في القرن العشرين لم يمنع من تطور الهرمنوطيقا الخاصة في الفروع المعرفية المحددة؛ لذلك لا نزال نسمع ببحوث ودراسات هرمنوطيقية في الأدب والإلهيات والعلوم الاجتماعية والحقوق.

5- أهداف الهرمنوطيقا:

سبق أن ألمحنا إلى أن الهرمنوطيقا، وبسبب التنوع الواسع للدراسات المدرجة تحت عنوانها، وتوافرها على أرضيات واتجاهات متباينة ومتعارضة، تفتقر إلى تعريف واحد يسلّم به الجميع، كما تفتقد إلى إجماع يتعلق بحدودها وجغرافياتها، فلا يتسنى ذكر حقل خاص بوصفه الميدان الوحيد لعلم الهرمنوطيقا. والآن نحاول معرفة هل بالإمكان تقرير أهداف مشتركة جامعة للهرمنوطيقا تقبلها كل الاتجاهات الهرمنوطيقية على اختلافها؟

في هذا المضمار أيضاً، لو توخينا أهدافاً وغايات مشتركة يتفق عليها الجميع، فلن نصل إلى نتيجة ذات بال، وقد نقع في شطط وتهافت. فالتحولات الساطعة الأساسية التي شهدتها اتجاهات الهرمنوطيقا، وتغتر الآراء حول وظائفها ومحتواها الداخلي طوال تاريخها، رسمت لها أهدافاً وأغراضاً جد متباينة ومتناثرة. إذ كيف يمكن العثور على أهداف مشتركة بين رؤية تتوقع من الهرمنوطيقا وضع منهج صحيح لفهم النص ورفع غوامضه، ورؤية تقرر أن الهدف من التأمل الهرمنوطيقي شرح منهجية العلوم الإنسانية، وتنقيح المبادىء المتحكمة في فهم المنجز الأدبي والفني والسلوكي للبشرية عبر التاريخ؟!.

الانقلاب الذي اجترحته الهرمنوطيقا الفلسفية مطلع القرن العشرين في مناحي التأملات الهرمنوطيقية ومساراتها، وسّع الهوة بين هرمنوطيقا القرن العشرين والتي سبقتها، إلى درجة جعلت من تحديد أهداف مشتركة بين الهرمنوطيقا الفلسفية وسائر النزعات الهرمنوطيقية أمراً في غاية الصعوبة و التعقيد.

إن ما يجدر تركيزه هنا هو أن الهرمنوطيقا الفلسفية لا تتضارب مع سابقاتها في الأهداف والأغراض وحسب، بل وقلما يمكن تقرير غايات مشتركة بين الفروع المختلفة للهرمنوطيقا الفلسفية ذاتها. يعود الفضل في ما يُعرف اليوم باسم الهرمنوطيقا الفلسفية، إلى الفيلسوف الألماني "**مارتن هايدغر**" وتلميذه "**هانس غادامر**"، وإلى فيلسوفين فرنسيين متأثرين "**بهايدغر**" هما "**بول ريكور**" و"**جاك دريدا**". والتدقيق في التوجهات الهرمنوطيقية لهؤلاء الأربعة، وكلها من مناحي الهرمنوطيقا الفلسفية، يشير الى وجود اختلافات جلية في النسق الهرمنوطيقي، والنظرة لأهداف الهرمنوطيقا ورسالتها. إن الإلمام بنبذة عن أفكار بعضهم يسلط الضوء على الهوة الفاصلة الشاسعة بين الهرمنوطيقا الفلسفية وسالفاتها، ويُجلي حقيقة أن الهرمنوطيقا الفلسفية ذاتها غير مجمعة على الأهداف المرجوة من الهرمنوطيقا.

1 - يشير "**مارتن هايدغر**" في مقدمة كتابه الذائع الصيت "**الكينونة والزمن**" (Beingand&time)، إلى أن قدماء فلاسفة اليونان عنوا بالسؤال عن معنى الوجود كقضية فلسفية، وحاولوا إدراك حقيقة الوجود. ولكن منذ أرسطو إلى اليوم أغفلت الفلسفة هذا السؤال، واستعاضت عن السعي لوعي الوجود بمحاولة وعي الموجودات (Beings) [25].

كان للفلاسفة بعد أفلاطون أحكامهم المسبقة بشأن الوجود، فقرروا أنه أعم المفاهيم، وأنه بديهي لا يقبل التعريف. وبناءً على هذه السمات الثلاث، ما عادوا ينظرون للوجود كقضية فلسفية. بينما شدد "**هايدغر**" على أن شمولية مفهوم

الوجود وعصيانه عن التعريف، لا يصدّنا عن تقصي حقيقته ومحاولة وعيه. بل أكد أن الهدف الفلسفي الحقيقي يتمثل في الإجابة عن السؤال عن معنى الوجود. ويجب على الفلسفة رسم طريق نحو تقعيد هذا السؤال والبحث عن معنى الوجود.

وعنده أن وجود الموجودات لا يصنف بموازاة الموجودات وكأنها واحدة منها، إنما هو في جميعها، وأينما كان شيء كان ثمة وجود. إننا لا نستطيع مواجهة الوجود بشكل مستقل لنتعرف إليه؛ ولكن بما أنه الخصوصية الأخرى للموجودات الممكنة، ينبغي الكشف عن الوجود عن طريق الاستنطاق.

والوجود الإنساني الذي يسميه "**هايدغر**" بالدازاين (Dasein) أو الآنية، هو الوحيد بين الموجودات الذي يمثل سبيلنا إلى معرفة الوجود، ذلك أن الآنية وجود يطرح أكبر الأسئلة عن معنى الوجود، والبحث في معنى الوجود من إمكانياته الذاتية. فـ"**هايدغر**" يرى أن سبيلنا الوحيد لمعرفة الوجود ووعيه، هو تحليل البنية الوجودية للآنية. وهذا لا يعني أن الآنية متقدمة على الوجود، إنما لا يوجد للكشف عن الوجود ومواجهته سبيل إلا الكشف عن الوجود الإنساني أو الآنية [26].

ويعلن "**هايدغر**" إن ظاهريات الآنية الرامية إلى بلوغ معنى الوجود، هي الرسالة الرئيسة للفلسفة، فهي تمثل حقيقة الفلسفة الحقة. وهو يسمي هذه الظاهريات بالهرمنوطيقية. ذلك أن الفعل اليوناني (Hermeneuir) بمعنى "**جعل**

الشيء قابلاً للفهم"، وظاهريات الآنية تجعل الوجود ممكن الفهم. لهذا كان تحليل البنية الوجودية للآنية وظاهرياتها ممارسة هرمنوطيقية[27].

في سياق تحليل البنية الوجودية للآنية يصل "**هايدغر**" إلى خصائص تعد هرمنوطيقية من عدة جهات، وله إلماعاته في هذا التحليل إلى تبيين ماهية الفهم وكونه تفسيرياً، وكذلك إلى شروط حصول الفهم.

الهدف الأساس للتأمل الفلسفي عند "**هايدغر**" هو معرفة حقيقة الوجود؛ أي أن التأمل الفلسفي ذو غاية أنطولوجية. وهو، خلافاً لعلماء الهرمنوطيقا الذين سبقوه، ليس بصدد البحث عن منهجية أو تقديم منهج جديد للفهم، أو تنقيح وغربلة الأساليب الموجودة لفهم النص أو العلوم الإنسانية، إنه يرتقي بالهرمنوطيقا من مستوى علم المعرفة وعلم المناهج إلى مستوى الفلسفة، ويرى الهرمنوطيقا ضرباً من الظاهريات والفلسفة.

الجدير ذكره أن التأمل الفلسفي في ماهية الفهم البشري وتحليل الشروط الأنطولوجية لحصوله، ليس هدف "**هايدغر**" النهائي ، فالهدف النهائي هو السؤال عن معنى الوجود، وما تحليل البنية الوجودية للآنية إلا هدف وسيط، وجسر إلى الإجابة عن ذلك السؤال. أما تحليل ماهية الفهم وذكر خصائصه الظاهراتية، فأمور انتهى إليها "**هايدغر**" في سياق التحليل الوجودي للآنية، وليست هي الأهداف الرئيسة المرسومة مسبقاً في الهرمنوطيقا الهايدغرية.

2 - يدين "**هانس غادامر**"، تلميذ "**هايدغر**" المرموق، في هرمنوطيقاه الفلسفية بالشيء الكثير لأفكار أستاذه في تحليل الآنية، لا سيما تلك الخاصة بماهية الفهم الإنساني.

يمنح "**غادامر**" لهرمنوطيقاه الفلسفية بناءً أنطولوجياً ليبتعد عن الهرمنوطيقا المناهجية، لذلك نراه يواكب "**هايدغر**"، ولا يميل إلى تقديم أفكار جديدة في فهم النص أو العلوم الإنسانية. ولكن ينبغي الالتفات إلى أن الغاية الأساس في هرمنوطيقا "**غادامر**" لا تساوق الهدف الفلسفي "**لهايدغر**" على الإطلاق.

يتجه "**هايدغر**" إلى رسم أنطولوجيا جديدة، وينشد إدراك معنى الوجود (رغم إخفاقه في بلوغ هذا الهدف). أما "**غادامر**"، فلا يواصل هذا الطريق بحال من الأحوال، و لا يهتم بمعرفة حقيقة الوجود.

إن الأنطولوجيا (علم الوجود) التي يريدها "**غادامر**" هي أنطولوجيا الفهم، و بما أنه يعتبر الفهم تفسيرياً تأويلياً (interpretative) دائماً، فهو يصب طاقته التأملية في ماهية التأويل و التفسير. إنه عوضاً عن تقديم منهج تفسير، يتوغل بأفكاره في التفسير ذاته، و في الشروط الوجودية لحصوله.

إن التأمل في ماهية الفهم وطابعه التأويلي يمثل هدفاً وسيطاً بالنسبة إلى "**هايدغر**"، يوليه اهتماماً ضمن تحليله لبنية الآنية، ويهدف منه الوصول إلى هدف آخر، هو الإجابة عن السؤال في معنى الوجود. بينما الغاية الرئيسة عند "**غادامر**" إجلاء حقيقة الفهم وأركانها الأنطولوجية، ولا أهداف له وراء هذه الغاية [28].

الشاهد الآخر على تباين هذين المنحيين في الهرمنوطيقا، هو أن "**هايدغر**"، وخلافاً لـ "**دلتاي**"، لم يعبأ بالمشكلة الأصلية للعلوم الإنسانية، وهي موضوعية (Objectivity) الفهم وماهية الحقيقة في معطيات هذه العلوم. أما في هرمنوطيقا "**غادامر**" فتبدأ هذه القضية كمسألة أساسية، بمعنى أن "**غادامر**" يقيم جسوراً من أنطولوجيا الفهم إلى علم المعرفة، ويبقى يتأرجح بين هذين، ويستنبط من تحليله لماهية الفهم وتأويله وظروفه الوجودية في حيّز العلوم الإنسانية (وعلى الضد من دلتاي) عدم إمكانية الوصول إلى الحقيقة عن طريق المنهج، بل ينبغي النظر إلى الحقيقة بشكل متفاوت عما هو عليه في التراث الفلسفي والعلمي. فالعكوف على المنهج والعمل على تنقيته وتنقيحه وتشذيبه لا يعجز عن إيصالنا إلى الحقيقة وحسب، بل و يزيدنا بعداً عن موضوع الدراسة.

يوزع "**غادامر**" مواضيع كتابه الرئيس "**الحقيقة والمنهج**" (Truth and method) إلى ثلاثة أقسام؛ ويستعرض رؤاه الفلسفية حول التفسير والفهم في كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة: علم الجمال، والتاريخ، واللغة (المواد الخاصة بفهم النص). ويدل على أن الفهم الموضوعي بالنحو الذي يطمع إليه أنصار الموضوعية في العلوم الإنسانية، غير ممكن في أي من هذه المجالات الثلاث.

3 - المفكر الفرنسي المعاصر "**بول ريكور**" رغم تأثره بـ"**هايدغر**"، إلا أنه يربط الهرمنوطيقا بالظاهريات على نحو يخالف فيه "**هايدغر**".

لقد نفذ "**هايدغر**" عبر تحليل ظاهرة خاصة اسمها الآنية، إلى محاولة إدراك الوجود، فهرمنوطيقاه بالتالي هي أنطولوجيا تأسيسية تتجاوز علم المعرفة

وعلم المناهج، وتتعدى حتى أسس أنطولوجيا الفهم. أما "**ريكور**" فلا يتابع الأنطولوجيا بشكل مباشر، وعن طريق التحليل الوجودي للآنية، إنما يتوخى بلوغ الوجود عن طريق علم المعاني. فبما أن كل أنواع الفهم الأنطولوجي لا بد من أن يعبّر عنها باللسان، إذاً فكل ضروب الظاهريات التي تصبو إلى بلوغ فهم الوجود، لا بد لها من علم المعاني؛ وبالتالي، فالهرمنوطيقا ليست سوى علم المعاني.

إن التحليل النفسي شكل من الظاهريات الهرمنوطيقية،أعني انها تتحرى المعاني الخفية وراء الأحلام، وتريد معرفة الوجود عن طريق هذه الظاهريات. وعلم الأساطير في الآداب والأديان هو أيضاً نمط من أنماط الظاهريات. ففي ظاهريات الدين -كما في أعمال مرسيا إلياد- يصار إلى تأويل الرموز الفلكية لمعرفة المعاني الكامنة وراءها.

يرى "**بول ريكور**" أننا محجوبون عن علم الوجود المستقل المباشر كما يتصوره "**هايدغر**"، أضف إلى ذلك، أن أي أنطولوجيا لا بد لها من أن تكون تأويلية زاخرة بالرموز و التمثيلات؛ لذلك لا سبيل إلى علم الوجود سوى علم المعاني. يجب بواسطة الظاهريات، وإرجاع الرموز إلى الجذور الأعمق، ومعرفة دلالاتها وتخطي مستوى الوعي الظاهري، فتح الطريق إلى علم الوجود [29].

يتضح بهذه الخلاصة أن "**بول ريكور**" لا يماثل "**هايدغر**" في تقصّي علم الوجود وإدراك حقيقة الوجود عن طريق أنطولوجيا الآنية. وهو يختلف عن "**غادامر**" أيضا في كونه لا ينشد علم الوجود، ولا يتابع المشروع الفلسفي لـ "**غادامر**" في الأنطولوجيا الهرمنوطيقية (Hermeneutical ontology). إن

"ريكور"، إذ يتطرق في هرمنوطيقاه لأنطولوجيا الفهم؛ فلأنها تمثل بالنسبة إليه الجزيرة الموعودة، فهو لا يهدف إلى التحليل المباشر لماهية الفهم، إنما ينطلق من طريق طويل هو التدقيق في أدوات التأويل واللغة، ليلقي من خلاله نظرة إجمالية على أنطولوجيا الفهم [30].

وأخيراً نكتفي بالإشارة إلى أن الهرمنوطيقا تفتقر عموماً لأهداف مشتركة ثابتة يتفق عليها جميع الهرمنوطيقيين، بل يتابع كل منهم أهدافاً خاصة بحسب ما تمليه عليه رؤيته الهرمنوطيقية.

6- مكانة الهرمنوطيقا و أهميتها:

تناولنا في معرض حديثنا عن تخوم الهرمنوطيقا، حقيقة أن الهرمنوطيقا بشكلها العام، وبالنظر لتعدد مناحيها واتجاهاتها، تغطي مساحة كبيرة من الأنشطة الفكرية. هذه التغطية الواسعة تعمل على تلاقي الهرمنوطيقا مع كثير من حقول الفكر، وتؤدي إلى تلاقحها وتعاطيها مع العديد من فروع العلم والمعرفة، وتفتح المجال رحباً لتأثير الأفكار الهرمنوطيقية في الفكر الإنساني.

الحوار المكثف للهرمنوطيقا مع المجالات المعرفية كافة، رهين إلى حد كبير، على تركيز الهرمنوطيقا على عنصري اللغة والنص. إن الدراسات ذات الصلة باللغة وتفسير النص، تحظى باهتمام العديد من فروع المعرفة البشرية المختلفة، إلى حد وصفها "بول ريكور" أنها الحل الذي بمقدوره إنقاذ الفكر المعاصر. ومن الطبيعي أن تمسي الهرمنوطيقا مركز ثقل التفكير المعاصر، بسبب ما توليه من

أهمية لقضايا اللغة وتفسير النص؛ ذلك أن علوماً، نظير النقد الأدبي وعلم الدلالات (Semiotics) وفلسفة اللغة والفلسفة التحليلية والإلهيات، وطيدة الصلة باللغة أو فهم النص. والهرمنوطيقا، لا سيما الفلسفية منها، خلقت بلا ريب تحديات خطيرة عبر طرحها رؤى تتسم بالصبغة الراديكالية الثورية، وأثرت بمدّها على المشتغلين في هذه الميادين العلمية.

طرحت الهرمنوطيقا الفلسفية الألمانية بزعامة "**هايدغر**" و "**غادامر**" أفكاراً حول ماهية الفهم الإنساني، وأوجدت تحديات، لا للفلاسفة و علماء المعرفة وحسب، بل وللمتكلمين والنقاد الأدبيين أيضاً، وحتى للعلماء التجريبيين، وأخضعت أساليبهم التقليدية المألوفة للنقد. فكما تجر هذه الأفكار المؤرخ، أو عالم الفن للمكابدة العلمية من أجل تصديقها أو رفضها، كذلك تترك بصماتها الواضحة على المتكلمين و علماء الدين؛ لأنها تنخر بعض الأسس والقبليات التي ترتكز عليها إمكانية التمتع بفهم موضوعي مطلق (غير نسبي) للأشياء والنصوص.

إن هرمنوطيقا "**بول ريكور**"، وبما تضفيه من سعة وامتداد على مفهوم النص (Text)، لتجعله شاملاً لكل ما ينطوي على رموز و تمثيلات، بما في ذلك الأحلام والأساطير الدينية، توسع عملياً من تخوم الهرمنوطيقا إلى حد كبير. فكل علم معاني وتأويل للرموز من وجهة نظره، نوع من الظاهريات، وهو بالتالي نوع من الهرمنوطيقا. وطبعاً إذا أُريد للهرمنوطيقا العامة أن تتكون وتظهر، لا بد أن تتوخى التوافر على مناطات وملاكات عامة تسود هذه الأنواع من الظاهريات.

إن هذا التوسع في التخوم الذي يماثل أنطولوجيا الفهم لدى "**غادامر**" من حيث شموله وعموميته، يربط الهرمنوطيقا بمباحث وعلوم متعددة، وهذا الربط الواسع يضاعف طبيعياً من أهمية الهرمنوطيقا ومكانتها، حيث يسود الشعور في المعارف والعلوم المختلفة بعدم الاستغناء عن معطيات الهرمنوطيقا، وحتمية اتخاذ موقف حيال تعاليمها.

لقد اكتسبت الهرمنوطيقا اليوم أهمية بالغة في العلوم الاجتماعية والإنسانية، بل أضحت بؤرة لفلسفة العلوم الاجتماعية. وتعود بواكير هذه الأهمية إلى التفاتة "**دلتاي**"، بأن ما يصدر عن الإنسان كسلوك وفنون ونصوص وأحداث تاريخية، لها أجزاء ذات معنى لا بد من فهمها وتشخيصها بواسطة ذات فاهمة (Subject). والتفات المفكرين الهرمنوطيقيين، من ناحية ثانية، إلى أن فاهم ومفسر المقولات الإنسانية ذات المعنى (الفنون، النصوص، السلوك والأحداث التاريخية)، مغموس في مجموعة من المعاني والقيم والرؤى، قد تترك تأثيرات على نتائج فهمه، الأمر الذي يطرح سؤالاً هرمنوطيقياً على جانب كبير من الأهمية:

هل من الميسور لهذه الذهنيات الزاخرة بالقبليات أن تفهم المنجز البشري على نحو موضوعي؟

تعاملت الهرمنوطيقا الفلسفية والنظرية الهرمنوطيقية (Hermeneutical theory) بنحوين متفاوتين مع هذا السؤال الأساس للعلوم الإنسانية والاجتماعية. فالمنظّرون الهرمنوطيقيون كـ "**دلتاي**" ذهبوا نحو ابتكار نظرية عامة ومنهجية متماسكة للعلوم الإنسانية، تجعل الفهم الموضوعي ممكناً، أما الهرمنوطيقا الفلسفية

فشددت على ضرورة امتزاج أفق المفسر بالموضوع المراد تفسيره، رافضة إمكانية الفهم الموضوعي للظواهر.

7- الهرمنوطيقا المجهولة:

ذكرنا فيما مر أن الهرمنوطيقا انتشرت كفرع علمي في القرن السابع عشر. ومع ذلك، فقد كانت هناك قبل هذا التاريخ وبعده أفكار وآراء لم تعرض تحت لافتة الهرمنوطيقا رسمياً، إلاّ أنها تضمنت محتوى هرمنوطيقيا بشكل أو بآخر. ويطلق على هذا الصنف من التأملات والأفكار اسم **"الهرمنوطيقا المجهولة"**.

المراد باشتمال هذه الأفكار على محتوى هرمنوطيقي، هو أنها تتلاءم وبعض النزعات الهرمنوطيقية. فالمفكرون الذين نادوا بتأويلية الفهم البشري قريبون طبعاً إلى آراء **"هايدغر"** و**"غادامر"** الهرمنوطيقية، و لهم تبعاً لذلك شيء من الاتجاهات الهرمنوطيقية، رغم أنهم لم يذكروا للهرمنوطيقا اسماً طوال مسيرتهم الفكرية.

وعموماً، تواجه العديد من الفروع العلمية الحديثة الظهور مثل هذه الحالة، أي وجود إشارات وبذور لها عند علماء ومفكرين سابقين، رغم أن هذه البذور و الأفكار الأولية لم تسجل رسمياً باسم ذلك الفرع العلمي وضمن نطاقه. وللمثال: يمكن الإشارة إلى فلسفة الأخلاق (Meta ethics) التي لم تظهر كفرع مستقل، وشعبة من شعب الفلسفة إلا في القرن العشرين. والحال أن الكثير من المتكلمين

والفلاسفة خاضوا منذ أبعد الأزمان في تحليل قضايا الحسن والقبح، دون أن يطبقوا على مناقشاتهم اسم فلسفة الأخلاق.

وفي مضمار الهرمنوطيقا أيضا، يمكن الإشارة إلى مفكرين عالجوا في طيات مؤلفاتهم إشكالات هرمنوطيقية، من دون أي ذكر لاسم الهرمنوطيقا. وفي ما يلي نشير إلى بعضهم:

- القديس "**أوغسطين**"، فيلسوف ولاهوتي، له عميق الأثر في الهرمنوطيقا الحديثة. وقد استلهم كل من "**هايدغر**" و"**غادامر**" من أفكاره وآرائه. فـ "**هايدغر**" يُكثر الإشارة إلى القديس "**أوغسطين**"، إنّ في كتابه "**الكينونة والزمن**" أو في محاضراته.

ولأوغسطين رسالة بعنوان (On Christian doctrine)، ينعتها "**بلينغ**" أنها أكثر الكتابات الهرمنويطقية تأثيراً من الزاوية التاريخية [31].

يقصر "**أوغسطين**" البحث الهرمنوطيقي على الفقرات الغامضة من الكتاب المقدس. ويعتقد أن هذا الكتاب واضح ومفهوم أساساً، مبتعداً برأيه هذا، عن القائلين إن الكتاب المقدس كله تمثيلات ورموز و كنايات. فالحاجة إلى التأمل الهرمنوطيقي لا تبرز إلا إذا حالت الفقرات الغامضة دون الفهم. وكانت فكرته هذه المادة الجنينية لوضع قواعد هرمنوطيقية.

مال "**أوغسطين**" إلى أن مجرد إتّباع قواعد تفسيرية لفهم الكتاب المقدس ممارسة غير كافية؛ إنما ينبغي أن يسطع على الإنسان نور من الله يزيل الغموض عن الكتاب المقدس؛ وبالتالي فإن كل شيء منوط بالواقع الروحي للمفسر.

وقد اقتضت الهرمنوطيقا الفلسفية هذه النقطة الأخيرة، فقررت أن حصول الفهم يستلزم، إضافة إلى التركيز على دور النص ذاته، إيلاء أهمية لذهنية المفسر، ليكون فهم النص بالتالي حصيلة تسليم المفسر و انفعاله قبال النص.

يعتقد القديس "**أوغسطين**" أن خلط المعاني الحقيقية (Proper) بالمعاني المجازية والاستعارية هو أبرز أسباب الغموض الذي قد يغلّف بعض عبارات الكتاب المقدس، والذي يجب احترازه بفضل الأنوار الإلهية، وإرجاع المبهمات إلى البينات. على المفسر الاندكاك بالكتاب المقدس إلى درجة تتيح له استجلاء غوامضه بواسطة بيناته. وهذه من التعليمات الهرمنوطيقية المهمة في مضمار تفسير النص [32].

نقطة أخرى عقد عليها "**أوغسطين**" بالغ الأهمية؛ هي أننا حينما نسمع عبارة ما، لا نصبو إلى فهم الكلمة ذاتها وأشكالها الخاصة والجوانب المحسوسة من اللغة فيها، بل ننزع إلى إدراك الشيء الذي لا تستطيع الأذن سماعه، شيء يتعدى اللغة المحسوسة. ويعتبر هذا الشيء الكلمة الباطنية (Verbum) أو العقلية (Reason) **الدفينة** في اللغة والكلمات المسموعة. فهذه الكلمة لم تطرح بشكل مادي محسوس ممكن الإدراك بالحواس: كالأذن أو اللمس.

إن لغتنا ليست ترجماناً دقيقاً لأفكارنا وخلجاتنا الباطنية. واللغة. بما هي أداة عرضية حسية، تعجز عن إجلاء كامل للمعاني الباطنية (Verbum). وهذا على غرار أن كلمة الله: المسيح عيسى ابن مريم، لا يسعها في عالم التكوين أن

تكون بالضبط ذلك الشيء الذي كان مع الله منذ الأزل، رغم أن تجلي الله كامل تام من حيث هو تجلٍ.

إن معانينا الداخلية تنبثق عن معارفنا الضمنية؛ لذلك كانت لغتنا غير المتأنية عن شهود واضح، مرنة ومتنوعة بلا حدود [33].

وهذه بدورها من أفكار "**أوغسطين**" التي حظيت بإقبال كبير لدى "**غادامر**"، فتطرق إليها في عدة مواضع من كتاب "**الحقيقة و المنهج**"، ونهل منها في تشكيل نظريته التفسيرية [34].

- كما لا بد من اعتبار الفيلسوف الألماني "**فريدريك ويلهلم نيتشه**" (1844-1900) أحد الذين تضمن منجزهم المعرفي بذوراً للأفكار الهرمنوطيقية المعاصرة.

يعتقد "**نيتشه**" أن الحقائق الخاصة أسمى من متناول فهمنا، وما نعده فهماً ما هو إلاّ أساطير تنسجها تأويلاتنا وتصوراتنا. تنهض هذه التفاسير والتآويل من منظورنا (Prespective) ورؤانا. فلكل واحدة من الغرائز الإنسانية منظورها (زاوية نظرها) الخاص الذي تحاول فرضه على سائر الغرائز.

وحتى مقولات العقل التي تشكل قدراتنا لفهم الأشياء، ما هي إلا من زمرة الأساطير. فحقيقتها لا تتجاوز منظوراً منطقياً يخلع على نفسه لبوس الحقيقة الضرورية[35].

إن فكرة كون الفهوم ذات طابع تفسيري، أو قل "**تفسيرية الفهم**"، مما أكدت عليه الهرمنوطيقا الفلسفية أشد التأكيد. ويوضح "**هايدغر**" في كتابه:

"**الكينونة والزمن**"، أن فهمنا للأشياء و الأشخاص ولأنفسنا هرمنوطيقي دائماً، ويقصد بالهرمنوطيقي: المسبوق برؤية خاصة (Fore sight)، وبُنية مسبقة(For structure)، وهذا ما يتناغم مع فكرة "**نيتشه**" في تأثير المنظور، وزوايا النظر على الإدراكات.

الموضوع النيتشوي الآخر الذي يُلْمَحُ فيه طابع هرمنوطيقي، هو تصوره للحقيقة. فالثمرة الطبيعية للاعتقاد بتفسيرية كل الفهوم هي أن تكون الحقيقة بمعناها الشائع (الفكرة المطابقة للواقع) مما لا يمكن إدراكه، فكل مدركاتنا مجرد أساطير، بعضها أنفع من بعض. فإذا كانت هذه المنفعة ثابتة ودائمة، خلعنا عليها لون الحقيقة، وآمنّا أنها حقيقة لا تقبل النقاش.

الكثير من الناس يميلون إلى أن يتمتعوا بالمعرفة، والمعرفة تتشكل من قضايا ثابتة وحقائق مطلقة، لذلك لا يعبئون بالواقع السيال للحقيقة، بل يرونها شيئاً ثابتاً، غير فاطنين إلى كون الحقيقة من سنخ السيرورة والتشكل المستمر (Becoming)، لا من صنف الكينونة الثابتة. ويُعزى النزوع لحب المعرفة أو إرادة المعرفة إلى ميل البشر للقوة، فإرادة القوة لدى الإنسان وطموحه للتفوق، يضطره إلى استخدام العلم والمعرفة أداة لاكتساب القوة واستثمارها، وهذا ما يصرفه عن رؤية الأشياء و الإنسانية على واقعها؛ أي في حالة سيرورة دائمة، ويدفعه للإيمان بتصوراته و تفسيراته الناتجة عن زوايا نظره الخاص كحقائق لا تقبل الشك أو النقاش [36].

وفي الهرمنوطيقا الفلسفية المعاصرة أيضاً، تنحسر الحقيقة (Truth) بمعناها التقليدي الشائع. فالهرمنوطيقا الفلسفية تؤمن بأن المفسر أو الفاهم ليس محايداً في عملية الفهم، إذ أن أفقه المعرفي، وذهنيته وقبلياته تتدخل يقيناً في تفسير النص، أو العمل الفني أو الحادثة التاريخية، ومن المستحيل أن يتأتى معنى الحادثة أو النص من دون أي تأثر بذهنية المفسر.

ويمكن ملاحظة أفكار غير هذه في المشاريع البحثية لفلاسفة من قبيل "**لودفيغ فيتغنشتين**" و"**أدموند هوسرل**" تلامس بعض الطروحات الهرمنوطيقية. وكان "**هايدغر**" قد تعلم منهجه الظاهراتي من أستاذه "**هوسرل**".

يرى "**هايدغر**" أن الإجابة عن السؤال حول معنى الوجود (Being) هو ظاهريات الآنية وتحليل الوجود الإنساني، وليس منهج هذا التحليل منهجاً استنباطياً برهانياً يحاول استخراجه من شيء آخر، إذ لا يمكن استنتاج شيء عن الوجود من غير الوجود. والسبيل الوحيد لمعرفة وتحليل الوجود الإنساني، هو منهج ظاهريات الوجود. فبإمكان الوجود أن يسفر عن نفسه، وعن طريق انكشاف الوجود يتسنى اكتشاف معنى الوجود.

يعترف "**هايدغر**" باستلهامه أفكار "**هوسرل**"، لاسيما من كتاب: "**بحوث منطقية**"، والشاهد على هذا إهداء كتاب "**الكينونة والزمن**" لـ "**هوسرل**". بيد أن هذه التأثيرات لم تؤدِّ إلى التطابق الفكري والاتساق النظري. طمح "**هوسرل**" إلى إقامة الفلسفة على أركان يقينية مكينة (كما فعل ديكارت)، لتتحلى بشأن يناظر شأن العلوم. أما "**هايدغر**" فقد تابع غاية أخرى، هي الإجابة عن السؤال حول

معنى الوجود؛ ولهذا أقصى "**هوسرل**" تلميذه من زمرة الظاهراتيين، آخذاً عليه مراوحته في مذهب أصالة الوجود الإنساني، وعدم ارتقائه حتى إلى مستوى الفلسفة [37].

بهذه الإلماعات الموجزة تنجلي لنا حقيقة هي: إن الأفكار الهرمنوطيقية لا تنحصر في الكتابات الهرمنوطيقية الذائعة الصيت، أو المناحي المعروفة للهرمنوطيقا، بل ثمة كمّ كبير من الدراسات والطروحات رغم أنها لم تحمل عنوان الهرمنوطيقا صراحةً، إلا أنها تمتّ بصلات وطيدة لهذا الفن.

وباتضاح أن هناك أيضاً "**هرمنوطيقا مجهولة**"، نعرج على الفكر الإسلامي وعلماء الدين لنطل على المشهد الهرمنوطيقي في هذا الحيّز.

8- الإسلاميون و الهرمنوطيقا:

مفردة الهرمنوطيقا كغيرها من المصطلحات الحديثة، كالفلسفة التحليلية وعلم اللغة، وفلسفة اللغة، وعلم الدلالة، لا اصل لها في أي من فروع المعرفة الإسلامية، فلم يقدم علماء الإسلام، سواء منهم المتكلمون أو الفلاسفة أو الأصوليون أو المفسرون، دراسة تتناول هذا الفن بصفة رسمية منتظمة. ولكن، كما أشرنا في خاتمة الكلام عن "**الهرمنوطيقا المجهولة**"، من الممكن أن تكون بعض الدراسات ذات الصلة بالهرمنوطيقا المحددة المعالم، قد تسربت إلى بعض مدارات الفكر الإسلامي. ونحاول في ما يلي تسليط الضوء على هذا الاحتمال. ولكن قبل أن نقّدم جوانب لهذه الحالات، من الضروري الإشارة إلى أن النحل

الهرمنوطيقية متنوعة، وقد تتناسب الفكرة مع نحلة هرمنوطيقية ولا تتناسب مع أخرى. ولنستحضر في هذا الباب ما أسلفنا ذكره في معرض مناقشاتنا لتخوم الهرمنوطيقا وأهدافها من تباينات مهمة، بل وتناقضات تتمايز بها النحل و المناحي الهرمنوطيقية المختلفة.

كانت الهرمنوطيقا قبل "**هايدغر**" متخصصة في النصوص بنحو حاسم. فقد استأثر التنظير لكيفية تفسير النص وتصحيح و تنقيح المنهج الصحيح لفهم النص بحصة الأسد من الجهود الهرمنوطيقية المبذولة. والهرمنوطيقا الفلسفية، رغم أنها لا تتخذ من فهم النص غاية أساسية لها، غير أنها توليه أهمية بالغة. من جانب آخر، تبدو العلوم الإسلامية بمختلف تفريعاتها، وخصوصاً الفقه و الكلام والتفسير، وثيقة العلاقة بفهم النصوص الدينية وتفسيرها. وبذا ينتهج علماء الإسلام نظرية تفسيرية خاصة في مراجعاتهم للنص الديني. وطبعاً يمكن اعتبار مباحث علماء الدين المسلمين في نظريتهم التفسيرية مباحث هرمنوطيقية، حتى لو لم تحمل اسم الهرمنوطيقا بصفة رسمية.

وبديهي أن ثلاثة فروع علمية من المعرفة الإسلامية؛ الكلام والفقه والتفسير، هي المعنية أكثر من غيرها بتشذيب وتنقيح النظرية التفسيرية الخاصة بفهم النصوص الدينية. ومن المناسب استهلال المؤلفات التي توضع في هذه الحقول العلمية بدراسات عن هذه النظرية. بيد أن المألوف هو اجتراح هذه الدراسات ضمن مجالين اثنين:

الأول والأوسع استيعاباً لهذه الدراسات هو علم الأصول، الذي يأخذ على عاتقه، بوصفه علماً تمهيدياً للفقه، تنقيح القواعد و الأصول المستخدمة في استنباط الحكم الشرعي. ولا تختص كل المباحث الأصولية برسم قواعد لفهم النص؛ لأن الأدلة الفقهية ومصادر الأحكام الشرعية غير محدودة بالأدلة النقلية المأخوذة من الكتاب والسنة، ومع هذا فإن قسماً كبيراً من علم الأصول يختص بقضايا فهم النص و المبادئ التي تتحكم في فهم النصوص الدينية، ومن ذلك مباحث "**الألفاظ**".

الثاني: يشير المفسرون بنحو غير منتظم في مقدمات تفاسيرهم، إلى بعض القضايا ذات الصلة بآلية فهم القرآن الكريم وتفسيره، وهي طروحات تعد هرمنوطيقية بدورها. وللتمثيل نذكر الأسلوب التفسيري للمرحوم الطباطبائي في تفسير الميزان، فهو بإطلاقه أسلوب تفسير القرآن بالقرآن، قدم فكرة تفسيرية مختلفة. ولنا أن نقارن هذه النظرية التفسيرية بالنسق الفكري للأخباريين الذين لا يرون الآيات القرآنية مستقلة في دلالتها على القصد، ويعتبرون القرآن مختلفاً عن الحوارات العرفية، ويؤكدون أن الله لم يهدف إلى تفهيم مراده بواسطة الآيات القرآنية في حد ذاته، إنما يتحتم الاستعانة بروايات المعصومين ﷺ للتوافر على التفسير الصحيح ومعرفة مرامي الآيات القرآنية [38]. هذا التنظير التفسيري الذي يرسي الدعائم الأولى لتنوع أساليب التفسير، نمط من أنماط الطرح الهرمنوطيقي. كما أن ميول طائفة من العرفاء والصوفية لتفسير القرآن أنفسياً، وعدم الاكتفاء

بالظواهر اللفظية، ونزوعهم إلى إضفاء مسحة رمزية على الآيات القرآنية، هو الآخر نوع من الميول الهرمنوطيقية، له خلفياته عند فريق من اللاهوتيين المسيحيين.

يقوم التفسير الرمزي (Allegorical) للنصوص على قبلية أن لغة النص تبتعد عن لغة التحاور الدارجة، وتتلبس أغلفةً كنائية رمزية متكاثفة؛ لذا يجب التوغل إلى المعاني الحقيقية الكامنة وراء هذه الرموز و التمثيلات، ولا يتعذر على المعاني الظاهرية للألفاظ تقديم العون لنا في استكناه المعنى الحقيقي وحسب، بل تمثل معوّقات تعرقل جهودنا في هذا السبيل.

ما نتوخاه في هذا المقام هو مجرد الإشارة إلى وجود طروحات هرمنوطيقية على مسرح الفكر الإسلامي، أما التفصيل في جوانب النظرية التفسيرية المتبناة من قبل علماء الإسلام، فيستلزم فرصة أخرى؛ لأنه يستدرجنا إلى ميدان هرمنوطيقا النص، وهو ميدان فسيح خليق بإفراد كتاب مستقل له، تُدرس فيه حيثيات النظرية التفسيرية للعلماء الإسلاميين، وتعالج أبرز الإشكالات التي يمكن أن تسجلها الهرمنوطيقا الفلسفية ضد هذه النظرية التفسيرية.

الجدير ذكره أن نظرة الهرمنوطيقا الفلسفية للفهم بصفة عامة، وفهم النصوص على وجه خاص، تعد نظرة مبتكرة غير مسبوقة، والنقاشات التي تطرحها هذه الهرمنوطيقا على بساط البحث لا جذور لها في آراء المفكرين الإسلاميين.

إذن لا يمكن تحري و جهات نظر في الدراسات الإسلامية تمتّ بصلة إلى الهرمنوطيقا الفلسفية أو تكون قريبة منها، بل إن النظرية التفسيرية الشائعة بين

علماء الدين المسلمين، تقف على مستوى الضد من نتائج الهرمنوطيقا الفلسفية على صعيد فهم النص، إلا أنها تتناسب بصورة واضحة والطروحات الهرمنوطيقية السابقة للهرمنوطيقا الفلسفية، كما تشتمل على أوجه شبه كثيرة مع هرمنوطيقا عصر التنوير والهرمنوطيقا الحديثة لـ "**شلايرماخر**" وأتباعه في القرن العشرين، بصرف النظر عن مواطن افتراقها عن كل واحدة من هذه المدارس الهرمنوطيقية.

9- التأثيرات الهرمنوطيقية في الفكر الديني:

شهد الفكر الديني المعاصر إثارة بحوث وأسئلة جديدة، لبعضها جذور في الهرمنوطيقا، منها إمكانية تقديم قراءات مختلفة ولا محدودة للنص الديني، وتاريخانية الفهم وتحولاته المستمرة، واسباغ الصفة الشرعية على ذهنية المفسر، والسماح لها بالمساهمة في تفسير النص، وتأثر الفهم الديني بقبليات المفسر وتطلعاته وميوله و...الخ

لقد أثرت الهرمنوطيقا المعاصرة في الفكر الديني من جانبين، ووضعت حياله إشكاليات و أسئلة جديدة:

الجانب الأول يختص ببعض مباحث الهرمنوطيقا المعاصرة، بالتفكير الفلسفي حول الفهم بصفته العامة، بلا تخصيص لمجال الفهم أو حقله. في مثل هذه التأملات حول ماهية الفهم والشروط الوجودية لحصوله وخصائصه الرئيسة، ثمة أفكار و أحكام عامة حول مطلق الفهم، تتسع مدياتها للمعرفة الدينية ولفهم

وتفسير النص الديني، فتخلق، بالتالي، أواصر بين الدراسات الهرمنوطيقية والمعرفة الدينية.

أما الجنبة الثانية لاصطكاك هذين الميدانين المعرفيين، فهي أن الأديان الإبراهيمية (الإسلام، المسيحية و اليهودية) تبتني على الوحي الإلهي أو النص الإلهي، مما يستدعي تأثير الهرمنوطيقا في هذه الأديان ونفاذها إلى مناحٍ مختلفة من النصوص الدينية وفهمها وتفسيرها. هذه الآصرة المتينة بين الثقافة الدينية وتفسير النصوص الدينية، تجعل إثارة نظريات جديدة في تفسير النصوص وفهمها، ذات تأثيرات على الأسلوب الدارج لتفسير النص، فقد تمثل تحدياً لهذا الأسلوب، وقد تواجه علماء الدين بأسئلة جديدة، وقد تسلط إشكالات لا سابق لها على نمط المعرفة الديني.

الهرمنوطيقا معنية دوماً بتفسير النص، ورغم التحولات الكثيرة في تخومها وأهدافها، فهي ذات تركيز خاص على فهم النصوص. من هنا كان إطلاق نظريات حديثة في هرمنوطيقا النص ذا أثر على مناخ الفكر الديني.

والواقع أن الهرمنوطيقا قبل "**هايدغر**"؛ أي تلك السابقة للقرن العشرين، لم تشكل تحدياً كبيراً للفكر الديني، رغم بعض تجديداتها، وفتحها آفاقاً قشيبة في مجال تفسير النص. فكل المناحي والنحل الهرمنوطيقية التي سبقت القرن العشرين، ظلت وفية للطابع العام لأسلوب فهم النص، وسعت كل واحدة منها إلى ترميم وتنقيح جانب من هذا الأسلوب الدارج المقبول لدى الأكثرية. أما الهرمنوطيقا الفلسفية، وما أفرزته من دراسات في النقد الأدبي وعلم الدلالات، فقد

مهدت الأرضية لتحدٍ صارخ جابه الأسلوب المألوف لفهم النص، ونال من المعرفة الدينية تالياً.

وقبل التعرض لأبرز التحديات التي أوجدتها الهرمنوطيقا المعاصرة في ميدان فهم النص، من المناسب تقديم صورة إجمالية للمنهج المألوف في فهم النصوص.

يتحرك الفهم الدارج للنصوص الدينية والذي يسمى في الأدبيات التنويرية المعاصرة: "**القراءة التقليدية للدين**" حول جملة مدارات:

1 - المفسر يطلب معنى النص. ومعنى النص هو ذلك الذي يقصده المتكلم أو المؤلف، والذي يستخدم الألفاظ والجمل للتعبير عنه. إذاً لكل نص معنى محدد ونهائي هو الغرض الحاسم لصاحب النص. وهذا المراد الحاسم و المعنى النهائي للنص أمر موضوعي واقعي يحاول المفسر إدراكه و الوصول إليه. والمقصود بالموضوعي والواقعي هو: أن المفسر قد يخطىء فلا يقبض على المعنى الصحيح للنص، وأحياناً قد يصيب فيتطابق فهمه مع معنى النص، ويبقى المعنى في الحالتين شيئاً ثابتاً لا يقبل التغيير، ولا تؤدي ذهنية المفسر دوراً في صناعته. بحسب هذا التصور، تتضمن النصوص الدينية رسالات إلهية للبشر، وغاية مفسّرها إدراك هذه الرسالات التي تمثل الأهداف الحقيقية لصاحب النص.

2 - بلوغ الهدف أعلاه ميسور عن طريق انتهاج الأسلوب العقلائي المشهور لفهم النص، وفيه أن الظهور اللفظي للنص جسر للوصول إلى الغرض الحقيقي، والمعنى المقصود. فالمتكلم، أو صاحب النص، عبّر عن مراده بواسطة الألفاظ وتراكيبها. ودلالة الألفاظ على المعاني تتبع الوضع اللغوي، والأصول و القواعد العقلائية للتحاور والتفاهم و التفهيم، وهي قواعد عرفية وعقلائية تؤخذ بنظر الاعتبار من قبل المتكلم والمخاطب في جميع اللغات. وعدم مراعاة هذه الضوابط والقواعد تخل طبعاً في عملية فهم النص.

ووفق التصور التقليدي للفهم، من المتاح تشخيص وتدوين هذه الضوابط والأصول، على غرار إمكانية تشخيص وتدوين أصول التفكير الإنساني ضمن نطاق علم المنطق.

3 - الوضع المثالي للمفسر، هو أن يصل إلى فهم يقيني موثوق لمراد المتكلم الجدي. بيد أن هذا اليقين لا يتأتى في كل الأحوال، بل في حالات وضوح دلالة النص على المراد فقط، وهي حالات تسمى اصطلاحاً بـ"**النصوص**". ففي النصوص الدينية يتوافر المفسر على فهم موضوعي مطابق للواقع.

أما في غير "**النصوص**" التي يصطلح عليها بـ"**الظواهر**"، فرغم أن المفسر لا يتيقن من أن ما توصل إليه من معنى هو المعنى النهائي الحاسم للنص، بيد أن عدم اليقين هذا لا يفيد سلخ التفسير عن

الموضوعية والقيمة. فعدم الاطمئنان، وصعوبة مطابقة الفهم للواقع أو لمراد المتكلم، لا يستدعي عدم وجود معيار لفحص صحة التفسير من سقمه. ففي تفسير النص، لا سيما تفسير النصوص الدينية، نطمح إلى بلوغ فهم "**حجة وذي قيمة**". وإنما يكون التفسير حجة وذا قيمة إذا كان ممنهجاً مقعّداً تُراعى فيه القواعد والأصول العقلائية للتحاور.

إذاً طبق المنهج المألوف أو التقليدي لفهم النص، لا مجال لظهور أي تفسير للنص مهما كان، فالنص لا يحتمل أي تفسير، إنما التفسير ذو القيمة و الجدير بالنظر، هو ذاك الذي يباركه عرف العلماء.

4 - الفاصل الزمني بين عصر المفسر وزمن صدور النص لا يمنع المفسر من القبض على المعنى المقصود، والمراد الجدي للنصوص الدينية. فالفهم الموضوعي للنص ممكن رغم الفاصل الزمني والمكاني بين المؤلف والمفسر، ذلك أن تغيرات اللغة على مر العصور ليست بالنحو الذي يخلق لفهم النص عراقيل حادة، ويجعل الظهور اللفظي للكلام – الذي يتبدى للمفسر- على تضادّ مع المعنى الذي رمى إليه المؤلف.

5 - ينبغي أن يتركز همّ المفسر على وعي رسالة النص وإدراكها. ففهم النص عملية مدارُها النص والمؤلف (أصالة النص والمؤلف)، والمفسر ينشد مراد المؤلف عن طريق دلالة النص. من هنا، فإن أي إشراك لذهنية المفسر في تحديد محتوى الرسالة مرفوض تماماً. فقبليات

المفسر وأحكامه المسبقة تكدّر عملية الفهم، وتلوّثها، وتجعلها "**تفسيراً بالرأي**".

وهكذا، فإن أي تنظير لعملية التفسير، والذي يفضي إلى "**أصالة المفسر**" ويُشير الى إسهام ذهنيته و قبلياته في عملية الفهم، يتعارض بشدة مع الأسلوب المقبول الدارج للتفسير. فالمفسر، بناءً على الأسلوب التقليدي، منفعل حيال النص، ولا دور له إلاّ تلقي الرسالة من دون أي تصرف أو مساهمة في تشكيلها وصياغتها. وإذا أراد أن يتعامل بشكل فاعل في تحديد مضامين الرسالة، يكون قد إ نحرف عن المنهج الدارج المقبول للفهم، وسلك سبيلاً غير مبرر، وفسّر النصوص برأيه.

6 - تعارض القراءة التقليدية للنص "**النسبية التفسيرية**" أشد المعارضة. والمراد بالنسبية التفسيرية، الافتقار إلى معيار لتمييز الفهم الصائب من الخاطئ. فلا يمكن تحديد الفهم السليم من الفهم السقيم، فيغدو كل فهم للنص، أو الفهوم المتنوعة المتفاوتة على الأقل، مسوّغة ومقبولة، وما من فهم يتسم بالموضوعية دون غيره.

إن المنهج المتعارف عليه في فهم النص، يرفض وضع تفاسير كيفما اتفق. كما أن النص ذاته لا يتقبل أي تفسير مهما كان. وللمثال ينبغي الالتفات في باب النصوص الدينية إلى أن "**النصوص**" لا تفيد إلاّ تفسيراً وفهما واحداً، أما "**الظواهر**"، فهي إلى جانب تقبلها

لاحتمالات تفسيرية متعددة، إلا أن هذه الاحتمالات لا تخرج عن دائرة محدودة جداً. فالظواهر هي الأخرى لا تتقبل التفاسير المنغلقة غير المعقولة. وقد تبرز إلى السطح تباينات معينة في فهم بعض الظواهر. ولهذه التباينات مساحتها الصغيرة التي يحددها النص، لا ذهنية المفسر. بعبارة ثانية، حينما يطرأ الاختلاف في تفسير النص، تبقى الأصالة للنص والمؤلف في التفسير، ولا يتاح المجال لأصالة المفسر بأي حال من الأحوال.

تعرضت القراءة التقليدية للنص، و التفكير الديني الدارج، لتحديات و إشكاليات على يد بعض الاتجاهات الهرمنوطيقية في القرن العشرين. فقد أثارت الهرمنوطيقا الفلسفية، بشتى فروعها، سجالات حول تفسير النص وقضية الفهم بصورة عامة، مسّت العديد من أصول المنهج الدارج لفهم النص التي سردناها قبل قليل، وخلخلت أركانها، ناحتةً إشكالات وشبهات جديدة للتفكير الديني. فقد أشرنا منذ البداية إلى أن التفكير الديني وثيق الصلة بالمنهج التقليدي لفهم النص.

يبدو أن مناقشة هذه القضية المهمة، والإجابة عن أبرز الإشكالات والشبهات التي تفرزها الهرمنوطيقا الفلسفية وتفريعاتها الفكرية في طريق التفكير الديني، والقراءة الشائعة المعقولة للنص، تستلزم مجالاً مستقلاً. ونشير هنا إجمالاً إلى بعض هذه المباحث، لتتضح للقارئ

أبرز التحديات التي تكرّسها الهرمنوطيقا الفلسفية حيال الأسلوب التفسيري الدارج. فالأفكار والتعاليم الهرمنوطيقية الفلسفية أدناه تمثل الأرضية الأساس لهذه التحديات.

1 - فهم النص حصيلة امتزاج أفق المعاني لدى المفسر مع أفق المعاني في النص؛ ولذلك فإن إشراك ذهنية المفسر في عملية الفهم ليس بالمذموم، بل هو شرط وجودي لحصول الفهم، وينبغي التسليم له كواقع لا مندوحة منه.

2 - الفهم الموضوعي للنص، بمعنى الفهم المطابق للواقع، غير ممكن؛ لأن العنصر الباطني أو ذهنية المفسر وقبلياته شرط لحصول الفهم، فخلفيات المفسر ذات دور حتمي في كافة فهومه وتفاسيره كافة.

3 - عملية فهم النص عملية غير منتهية، فإمكانية القراءات المختلفة للنص لا تعرف حدوداً تتوقف عندها، إذ إن الفهم تركيب وامتزاج بين أفق معاني المفسر وأفق معاني النص، ومع كل تحوّل في المفسر وأفقه تتاح إمكانية جديدة للتركيب والامتزاج وولادة فهم جديد.

إذن لا نهاية لاحتمالات التراكيب ولإمكان القراءات والتفاسير المختلفة للنص.

4 - ليس ثمة فهم ثابت غير متحرك، ولا يصح تحديد فهم، بوصفه الفهم النهائي الذي لا يتغير، لنص من النصوص.

5 - ليست الغاية من تفسير النص القبض على "**مراد المؤلف**"، فنحن نواجه النص وليس المؤلف. وما المؤلف إلاّ أحد قراء النص، ولا يتميز عن باقي المفسرين والقراء بشيء. والنص كيان مستقل يتحاور مع المفسر، فينتج عن ذلك فهم للنص. وهكذا، فالمفسر لا يعبأ بالمقاصد و الغايات التي أراد المؤلف التعبير عنها.

6 - لا يوجد مناط أو معيار لفحص التفسير القيّم من غير القيّم، إذ لا يوجد أساسا شيء اسمه تفسير قيّم، والرؤية التي تتحدث عن شيء اسمه تفسير قيّم أو صحيح تقرر إدراك مرامي المؤلف كغاية للتفسير، بينما الهرمنوطيقا الفلسفية ترى "**أصالة المفسر**" ولا تتوخى معرفة قصد المؤلف إطلاقاً. ولأن مفسّري النص كثر، ولهم على مر الزمان آفاق متعددة مختلفة، ستظهر فهوم للنص جد متباينة، لا يصح اعتبار أي منها أفضل من الآخر.

7 - الهرمنوطيقا الفلسفية ملائمة تماماً لـ"**النسبية التفسيرية**"، وتفتح مجالاً رحباً لتفاسير متطرفة.

الخاتمة:

لا بد من التذكير بأن تأثيرات الهرمنوطيقا الفلسفية على مسرح التفكير الديني لا هي مباشرة، ولا هي متبلورة في صيغة منهج جديد لفهم النص. وقد أشرنا في مطلع هذه الدراسة إلى أنها غير مباشرة، ونوّهنا إلى أن الهرمنوطيقا الفلسفية ليست اتجاهاً دينياً ذا تعاليم دينية خاصة، وتأثيراتها في الساحة الفكرية الدينية إنما تحصل عن طريق التحديات التي تنسجها في طريق الأسلوب الدارج لفهم النصوص.

النقطة التي ينبغي تأكيدها في هذا المقام، هي أن المشكلات التي تسببها الهرمنوطيقا الفلسفية للمنهج التفسيري المألوف،لم تتبلور في شكل منهج بديل. فالهرمنوطيقا الفلسفية لا تزعم تقديم منهج جديد لفهم النصوص، بما في ذلك النصوص الدينية، إنما تعرض تحليلاً لماهية فهم النص، وشروط حصوله وأهدافه يتناشز بجد مع التحليل التقليدي، الذي يواجه بسبب هذا التناشز، نقوداً وشبهات لم يسبق له أن واجهها. والدفاع عن المنهج التقليدي لفهم النص، والمنافحة عن القراءة المشهورة للدين تالياً، رهن بمجابهة هذه الهجمات الجديدة والرد على إشكالاتها.

الهوامش والمصادر

1- Volme.1 Basil The Hermeneutics Reader, ed by Kort Muller, Black Well, pp. 1-2.

2 - كان اسم كتاب دون هاور "الهرمنوطيقا القدسية أو منهج تفسير النصوص المقدسة"

Hermeneutica sacra sire methodus exponendarum sacrom litterarum.

3- hermeneutics, Grondin, Jean, Introduction to Philosophical yale University press, 1994, p. 48.

4- Palmer, Richard E, Hermeneutics, North Western University press, 1969, pp 12, 13. routlege Encyclopedia of Philosophy, Ed by Edward Craeg, volume 4, 1998, p 385.

5- The Encyclopedia of Religion, Ed by Mircea Eliad, volume 5, p 179.

6- Introduction to philosophical hermeneutics, p22.

7- Palmer, Richard, hermeneutics, pXII.

استدل رابينسون أن معادل هذه الكلمة في اللغات الأخرى خال من الحرف s . يسمى هذا العلم بالألمانية (Hermeneutik) و بالفرنسية (Hermeneutique) و باللاتينية (Hermeneutica)، و كلها تلفظ بدون إلحاق s في نهايتها.

8 -غالباً ما يُشار في الهرمنوطيقا الفلسفية إلى تمييز كائن بين الشيء لنفسه (فنومن) و الشيء في نفسه (نومن) كحادثة هرمنوطيقية، فهو تمييز أدى دوراً بارزاً في انتقال الفلسفة الغربية من الميتافيزيقا إلى الهرمنوطيقا. راجع Grondin, Jean, sources of hermeneutics, State University of New York, 1995, p 3.

9 -يرى هانس غادامر في تحليله لماهية الفهم و تفسير النص، أنهما حصيلة امتزاج أفق معاني المفسر مع أفق معاني النص (Fusion of horizon). إذاً فالمفسر ينظر للنص من زاوية قبلياته ومعلوماته المسبقة، أي من زاوية مناخه الهرمنوطيقي الخاص. و طبقاً لهذا التحليل، فإن تفسير النص ثمرة حوار هرمنوطيقي (Hermeneutical discourse) بين المفسر و النص. راجع: Gadamer, Hans George, Philosophical hermeneutics, translated by David E. Linge, pp XX, XXI.